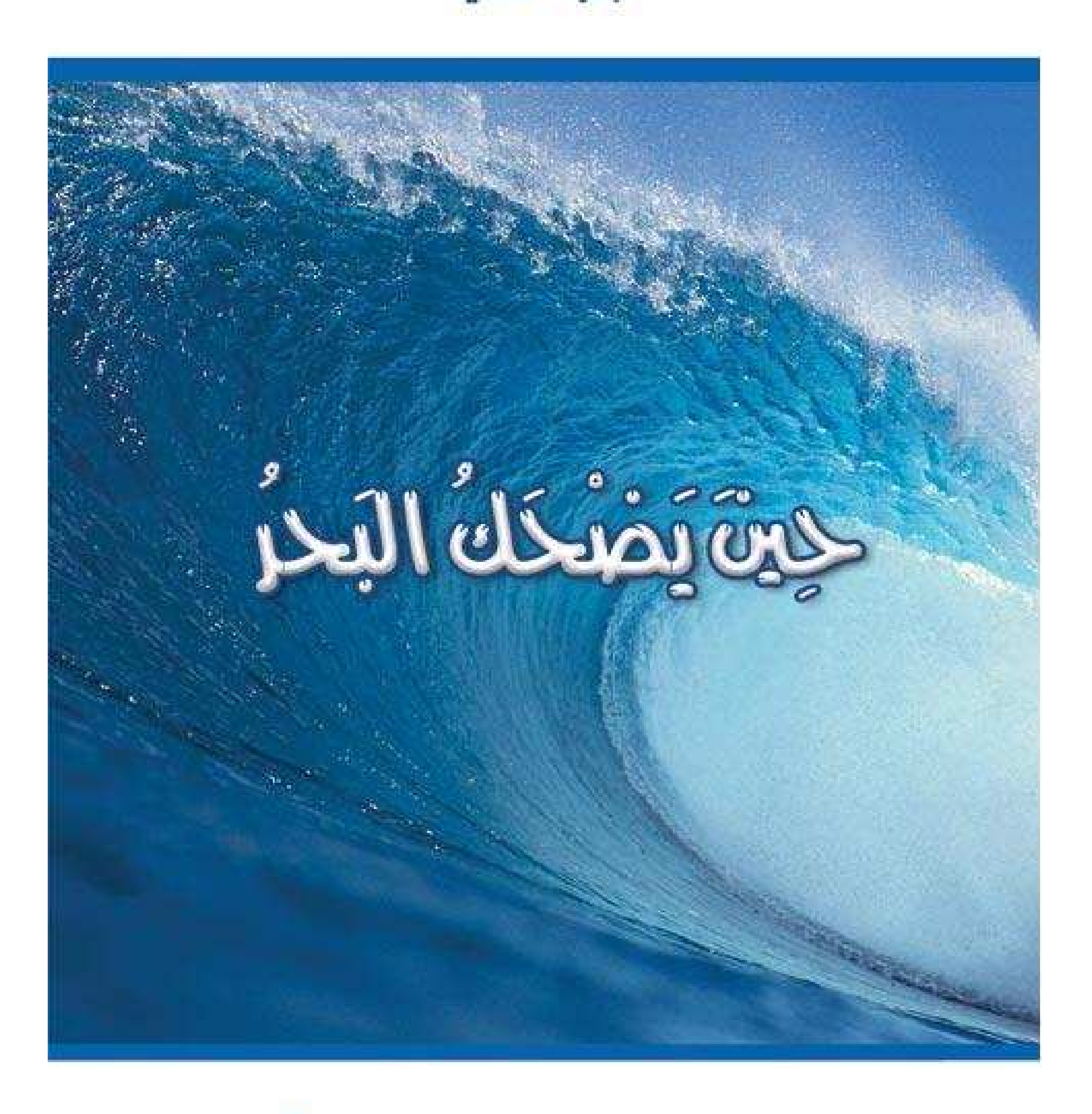
مجموعة قصصية



محمد العدوي

حين يضحك البحر
محمد العدوي

حين يضحك البحر

مجموعة قصصية

محمد العدوي

الطبعة الأولى 2008

دار اكتب للنشر والتوزيع

0129251592

المدير العام : يحيى هاشم

www.oktob.net

dar_oktob@gawab.com

رقم الإيدع :

تصميم الغلاف : أحمد فهمي

حين يضحك البحر

مجموعة قصصية

محمد العدوي

الطبعة الأولى

إهداء

إلى :

كلٍّ أنا بعضه : أبي

ونور أنا من شعاعه : أمي

وإليك أيتها الغريبة .

هذا الهيام

نظر إلى اسمها في أوراقه القديمة. كان يحب كتابته كثيرا ، يشعر وهو يعانق القلم يرسم به اسمها أنه يعانقها هي . ها هي تضحك خجلى بالفارس وترقص بالديواني، تجلس وادعة بالنسخ و متزينة بالثلث . وقليل ما كتب اسمها بالكوفي .

خطاط يعشق ريشته وأوراقه . كتب لكثير من الصحف عندما كانت الصحف تستعين بالخطاطين . تزين جدران دكانه لوحات كتبها بيده . (الحب ديني وإيماني) ، (أقيمي مقام البدر إن أفل البدر) ، (كن مع الله) ، وقصاصات من الصحف : (عبرنـــــا) ، (اغتيـــــال).

قال لي إنه إذا انصرف للوحة يكتبها فإنه لا يشعر بما حوله إلا إن أتت هي . كان قلبه كما قال يعلم بمقدمها قبل أن تأتي . رأيت لوحة رسمها لها من خياله ، فلم أدر أكانت بهذا الجمال ، أم أنه رسمها مما يمليه عليه قلبه .

كانت تبتسم في اللوحة ابتسامة تجعلك لا تلتفت عنها . خصلات شعرها المتناثرة على جبهتها العريضة قد زادت من جمالها . وهناك روح تختبئ وسط اللوحة .

شعرت بها لأني أكاد أقول إنني أحببتها أنا أيضا ، ربما خيل إلي أن أنفاسها تخرج من اللوحة فتصنع حولها هذا الجو.

رفع رأسه وتنهد ولم يتكلم .

كنت أتعجب كيف يحمل هذا القدر من الحب وهذه اللوحة عمرها الآن أربعين سنة . فإذا كان الدم تغير على القلب في هذه الأربعين ألف ألف مرة ، أفلا يتغير الحب عليه مائة مرة .

يقول إنه يحب دكانه هذا لأن أنفاسها اختلطت بهوائه ، لم يغير في المكان أي شيء . كأنه خشي أن يفر منه الهواء الذي اختلط بأنفاسها .

أشعر بشغف كبير لأعرف قصتها ، لكنه دوما يعتريه الصمت إن مرت بخاطره ، لم أحاول أن أسأله وإن كنت أتحسس خطوي في أنحاء قلبه .. وأحيانا في أنحاء أوراقه علي اعلم أي شيء يخفيه.

لا أدري أكان يحمل لها هذا القدر من الحب إن بقيت معه ، أم أن غيابها هو ما جعله معلقا وجعل حبه يزيد ولا ينقص ." الغياب يصنع الحب أكثر مما يصنعه الحضور" . أم أن قلبه من تلك القلوب التي يدخلها الحب صغيرا من نافذته الصغيرة فإذا كبر استعصى على هذه النافذة أن تخرجه .. فلا هو يخرج ولا هو يستقر، إذ إنه يعاكس ماء الحياة في مكانه . فكيف لدمه أن يملأ أوصاله بالحياة وهذا الحب يزاحمه سكنه .

آه ! كم كتب على العشاق الذين يصدقون في عواطفهم أن يشقوا بها .. حتى ولو أخلص لهم محبيهم .. فالحب ذاته لا يخلص أبدا .

وجدت في أوراقه ورقة صغيرة قد اصفرت من الزمن .

آه من الزمن ! حتى خطابات العشاق يعتريها الاصفرار. كانت رسالة كتبت بخط نسوي رقيق تكاد كل كلمة فيه أن تكون قبلة نائمة .. ويكاد الخطاب في جملته أن يكون بستانا من القبل .

قرأته .. ثم قرأته .

وعندها أدركت لم كل هذا الهيـــام .

يناير 2006

حياة

– " فين صورة الدم اللي اتسحبت النهاردة ؟ "

كم أكره هؤلاء الممرضات ؛ تتكلم الواحدة منهن كأن في فمها ألف لسان وتعمل وكأنها تستعير يدها .

قالت : موجودة . ثواني يا دكتور .

وانطلقت تسب كل ممرضة تحت يدها لأنها نسيت أن تضع النتيجة في الملف.

كان القسم في تلك الليلة هادئا فلم يكن لدينا إلا سبع حالات ، كلها مستقرة لا تحتاج لمتابعة كثيرة . وقفت بين الأسرة أشغل نفسي بالاطلاع في أوراق المرضى حتى تصل مس (سيدة) بصورة دم (حياة).
كانت حياة تجلس مسندة ظهرها للحائط وقد غطت ساقيها وهي تنظر أمامها مباشرة . لم يكن (أمامها) هذا شيئا يستحق النظر

فقد كان سريرا آخر لمريضة أخرى قد التفت في غطائها ونامت . من أوراقها علمت أن عمرها أحد عشرة سنة وأنها تعاني من أحد أنواع "الأنيميا" ومن وجهها علمت أنها جميلة وإن بدا هذا الجمال تائها خلف الشحوب الذي يكسوه ، ومن عينيها أدركت أنها ليست ككل الأطفال في الدنيا.

حمدت لسيدة تأخرها لأول مرة واقتربت من حياة وأنا أمسح شعرها وأسألها: ازيك النهاردة يا ست البنات .
فنظرت وقالت : كويسة.

صمتت لحظة وقالت : عمو .. هو .... أنا .. هعيش ؟!! ماما بتقول ياريتها ماتت قبل ما تجيبني وبابا كمان مهموم على طول ؟!.

أحسست أني لا أفهم أو أنها لا تفهم ما تقول أو أن خيالي هو الذي يصور لي هذه العبارة .. لو أنها قالت يا دكتور .... ولكن "عمو" هذه .. فتحت أبواب قلبي كلها .

قلت لها : طبعا هتعيشي وتكبري وتبقي عروسة زي القمر كمان .. مين اللي قالك الكلام الفارغ دا ؟!

لم تضحك ولم يبد عليها أي شيء سوى الصمت . لحظة ثم قالت: مش الناس بتيجي الدنيا علشان تعيش ، أنا هموت صغيرة ! جيت ليه؟

قد يسهل إجابة الكبير على أسئلة كهذه ، كثيرون يشتكون، خصوصا أصحاب الأمراض المزمنة ، لذلك أكون حريصا أن أصنع بينه وبين مرضه صداقة ليتحمله . لا أحب أن أسمع أمنية بالموت من أحد ، الحياة في ذاتها قيمة لا ينبغي أن تضيع في الخوف من الموت .

ماذا أقول لهذه الـــ"حياة" ..

جلست إلى جوارها بعد أن حملت دميتها التي كانت تشغل طرف سريرها وأنا أقول لها : كل إنسان أرسله الله لهذه الدنيا فإنما أرسله لعمل له . لن يترك الدنيا قبل أن يفعله ، وظيفة خصه الله بها . لم يعلمنا الله بأعمارنا لنحرص على هذه الوظيفة . لننام كل ليلة ونحن واثقون أننا أديناها أو أدينا جلها . ولأننا لا نحسن أن ندرك هذه الوظيفة في أكثر أحوالنا فنحن في كل يوم ننتظر الغد لنفعل فيه ما لم نفعله اليوم .

قالت : وأنا . ما هي وظيفتي ؟!

قلت لها : إنت في المدرسة . صح .

قالت : نعم .

وقلت : ولك أصدقاء ؟

قالت : ممم

قلت : وتلعبون .

قالت : كثيرا

قلت : وتفرحون جميعا بهذا اللعب ؟!

قالت : صح .

قلت : أليس إسعادنا لسوانا أمرا يستحق أن نحيا له .

قالت : لكن ماما ليست فرحة . وبابا كذلك .

قلت : نجعلهما يفرحان .

قالت : ازاي .

قلت :نفكر سوا

قالت : عمو .. بتعرف تغني ..

قلت : عمو برضو .. آه بعرف .

قالت : غنى لي .

قلت : طيري يا طيارة طيري يا ورق و خيطان .

الرشيدة

الرشيدة قرية صغيرة لا يذكر التاريخ مولدها، ولا يعلم أحد من الذي تركها وحدها هنا ورحل فكبرت بهدوء حتى أصبحت تضم بيوتا تتجاوز الأربعين ، لا تصل إليها إلا عن طريق ترابي لم يرصف، وعلى مد ذراعه الأيمن يصحبه جدول الماء الذي يرويها، وعلى ذراعه الأيسر تمتد بسط خضراء متعاقبة حتى تلتقي بالسماء، وهو ظليل في بعضه بأشجار الصفصاف ذوات الشعور المسدلة ، لم يعرف هذا الطريق سيارة إلا سيارة "لطفي باشا" وكانت أول سيارة تطؤه وآخر سيارة أيضا. أقرب سيارة تبلغك القرية تقف بك عند أول هذا الطريق.

بعد الفجر لا يفارق عبد الحي المسجد حتى تطلع الشمس يخرج إلى فدادينه الثلاث التي آلت إليه بعد قانون الإصلاح الزراعي يجلس هناك يرقب الفلاحين إن كان هناك عمل أو يرقب زرعه وهو يكبر حتى إذا انتصف النهار عاد إلى بيته يرتاح حتى الغروب ثم يختلف إلى زرعه يحكي له حتى ينام . لم تختلف له عادة منذ

خمسين سنة، وإلى اليوم وهو يطرق باب الثمانين لا تزال قدماه و عصاه قادرتين على حمله إلى هناك .

لم يكن الضباب قد انكشف ولا يظهر من الدنيا إلا البياض وأشباح حياة مختفية . ربما مترين فقط هي كل المسافة المرئية أما ما سوى ذلك فحياة كالحلم ، تنعدم تفاصيلها . وما كان في نفسه يشبه ما كان يراه أمامه ؛ لم تعد الأرض تدر ما يكفي نصف أيام العام . أبناؤه لا يزالون يطلبون مع أن أصغرهم يعمل وله دخل يكفيه وأولاده . يحيى لم تعد حوالاته تصل ، هكذا تقول زوجته وهو يريد أن نكمل له بناء بيته . سعد عليه ديون كثيرة وإبراهيم لم يفلح ولده في المدرسة فتقدم لجامعة خاصة ومنى ابنتها أصبحت عروسا ولا تملك تجهيزها .

ترك المسجد وسار كما اعتاد إلى أرضه . يحفظه هذا الطريق ، كل شجرة هنا تسلم عليه في كل رواحة وغدوة . قديم جدا هذا الطريق، من أيام الباشا . يبدأ عند المسجد حتى تقطعه أرض رفض ملاكها يومها أن تشق بطريق ؛ فانحنى الطريق إلى جهة الشرق قدر نصف كيل ثم عاد . حتى الطرق كانت تنحني لأصحاب الأرض ، لماذا إذا عندما أصبحنا نحن ملاك الأرض لم ينحني لنا طريق . كل الطرق التي ولدت بعد ذلك ولدت عمياء ، لا ترى الصغار .

خلف هذه الشجرة كانت أول قبلة له ، شمس هو اسمها، وشمس هو نورها، يغسل كل ركن في نفسه . وعلى رأسها منديل كغمامة حانية، لازال لحن ضحكتها معلقا في أغصان هذه الشجرة .
أمتار حتى لاحت له سنابل الأرز في حقله . قمتز جميعا كأها في حفل راقص . وحده اجتماعهم هو ما يحفظ لهم أعوادهم الضعيفة ، هو ما يجعلها قادرة على الوقوف . كان الضباب قد ارتفع قليلا وبدا الأفق الأخضر يتكشف بهدوء .

" تسعمائة ألف هو ثمنك الذي عرض عليّ ، لم أجمع منك عشر هذا الرقم . بل لو جمعت كل ما خرج منك ما بلغ النصف منه . لماذا كنا نحلم أن نمتلكك ما دام عطاؤك ضحلا هكذا . يقولون إن عطاء الأرض أشياء غير الطعام والمال ، وماذا يفيد أي شيء سوى الطعام والمال . أخبروني أن الذي يريد شراءك لديه مصانع فواكه و خضراوات يصدرها للعالم . لماذا عندما تطعمين سوانا يزيد عطاؤك ؟! يدفعون أكثر ؟! يأكلون أكثر ؟! يعرفون كيف يأكلون ؟! أم يعرفون لماذا يأكلون ؟!

أعلم أني سأموت عنك قريبا . سيستأثر بك يحيى وزوجته، ستبكي مني كثيرا ، وسيعنفها زوجها دوما ويطالبها أن تطلبك من أخيها،

لن يأبه سعد مع حاجته ، لا شيء يربطه بهذا المكان ولا حتى أنا . ماذا علي إذا لو أفقدك لنربح جميعا .

كم تمنيناك ، فلما صرت لنا صرت لغيرنا ! ثم أنت كما أنت لا وفاء فيك لأحد .

ماريان

أراحت رأسها على كفها وهي تتكئ بمرفقها إلى حافة المكتب الذي يجلس عليه في الناحية الأخرى الدكتور عادل مدرس الأمراض الباطنية. أما هي فكانت طبيب مقيم تكبرنا بسنتين على الأقل . وكنا نحن الثلاثة أطباء امتياز نستند إلى إحدى طاولات الكشف ننتظر دخول مريض نتناوله بكل ما يعكر مزاجه، ونفحص فيه كل عضو ثم لا نخرج بشيء لتقوم هي أو يقوم الدكتور فيمد يده ليخرج بالتشخيص في لحظة .

تكاد تشعر عند أول نظرة لوجهها أن بعض الشمس ذاب في بعض القمر واختبئ في قبضة الطين التي خلق الله منها البشر فجاءت هي من هذه القطرة.

فجمع وجهها لطفا وضاء ، وملاحة باسمة . حتى لتحس أنه لا يصلح إلا أن يكون صفحة غزل في ديوان . أو ورقة ورد في بستان.

(حاسس إني هحبك يا ماريان)

طالعتني عينيها فكأنما نُفخت فيها روح الجمال من هاتين العينين فتركت فيهما من كل لون من الجمال علامة . فأنت ترى في هاتين العينين الفجر والصبح والنسيم والندى .

هي في اتكاءها وشرودها كشجر الربيع القائم على الغدير تنسدل أغصانه لتمس الماء كيد طفل صغير .

و في ابتهاجها ومرحها كفراش الروض يتقافز يقبل الزهر فيميل من تقبيله بدلال يزيد في فتنة كليهما .

و في غضبها وثورتها كرشاش الماء قد يزعجك لكنك تستعذبه.

وهي في ضحكها خلقا آخر . يكاد يمحو كل هم في الدنيا . فلو ضحكت للطير لحط لها من سمائه .

وفي حديثها تكاد كل كلمة أن تحيل القيظ بردا وسلاما حتى أني فتشت عقلي عن أي سؤال في الطب أو غيره أسأله وما همي الجواب إنما هو أن تتحدث .

(أنا حبيتك خلاص يا ماريان .)

ما وصلت لهذا الخاطر حتى سمعت صوت الدكتور عادل يقول : قوم شوف الحالة دي يا دكتور.

حملت (دكتور) هذه على كل شخص سواي في الغرفة لكنه أعادها باسمي مرة أخرى ولمحت في وجهه ما يشبه ابتسامة لم أفهمها : قوم شوف عم صبري.

نظرت لعم صبري وأنا أكاد أقول له : حاسس إني هكرهك يا عم صبري . أخذت تذكرته وطلبت منه أن يتجه خلف الستار . استلقى وبدأت أفحصه على غير رضا وفي نفسي غيظ يجعل مس يدي عليه أثقل من الجبل وهو يقول : بالراحة يا دكتور .
أنهيت فحصه سريعا وعدت للدكتور وأنا أقول :"تضخم متوسط في الطحال و... "

لم ينتظر لأكمل . ابتسم وهو يقول : تضخم ايه يا ابني . دا شايل الطحال من سنتين !!..

(أنا كرهتك خلاص يا عم صبري)

مايو 2006

معرض للحياة

بقية من برودة . وشمس لم تخلع غلائلها . ساعة اختار أن يخرج ليتم لوحات معرضه الذي بدأه . كانت تنقصه صورة واحدة . صورة لا يسمع فيها صوت البشر . يريد الضوء السماوي في أول انسكابه قبل أن يختلط بالطين الحي . يحتاج صورة تصلح مفتاحا لمعرضه كله؛ معرض الحياة .

دوما تعرف عدسته طريقها . تعلم كيف تلتقط الحياة التي أمامه . قضى حياته في رهان هل يمكن لكامراه أن تلتقط حرارة الشمس ، أن تصور الحب و تجمعه في لوحة، أن تحيط الفقر و أن تخرج السعادة من لوحاته إلى حياة مشاهديها.

واليوم تم له ما يريد . لم تبق إلا لوحة واحدة . صورة تجمع الحياة كاملة ، تجمعها مجردة . كان يريد الحياة بلا زائدة فيها أو فضلة . وقرر ليحصل عليها لابد له أن يجد الحياة الخالية من الناس . قدّر في ظنه أن الحياة البكر هي التي لم تصل إليها يد آدمي . بحث لكنها بدت ناقصة . لم يحدد مفردات الحياة التي يريدها . لم يكن

يعنيه أن يصور سماء أو نهرا أو جبلا . يريد الحياة ولو وجدها في عمق البحر . بحث في صور الشجر التي لديه . الشجر الذي هو معنى الخطيئة ومعنى الستر التي تلى الخطيئة ومعنى الظل ومعنى النار ومعنى الموت ومعنى الحياة بعده . إنها الحياة إذا . لكن شيئا بدا فيها ناقصا . لا تصلح ، قرر ذلك وأعاد البحث .

صور كثيرا من النساء . صورهن مبتسمات وضاحكات، صورهن بثياب الحزن و بثياب الفرح . بثياب الشوق و ثياب الرغبة ، بثوب أمومة . وصورهن عاشقات . صورهن وفتش صورهن يبحث عن الصورة التي يريدها افتتاحا لمعرضه وتاه عما يريد .

آمن أن العين مفتاح الحياة وأن الروح التي دخلت منها تركت من كل شيء فيها علامة . فلا يضيع باحث عن شيء طلبه في عين ... فتش العيون الساجية والحانية والدامعة . فتش و لم تدله على شيء . ولم تكن صور الأطفال بكل ما تحمله أكثر إفادة له من سابقيها .

اليوم لابد له أن يعود بما يريد . أن يعود بالصورة التي تفتتح له معرضه . التي تصلح أن تكون عنوانا للحياة . سيقضي النهار هنا حيث اختار . بعيدا يبحث عن ما ينقصه في كل ما صوره.

.

.

جاء المعرض وبدت أول لوحاته مكانا خاليا وصفحة بيضاء . وكتب تحتها : لم أستطع أن أصور شيئا ما في الحياة . فتشت كثيرا. وهاك كل تفتيشي بين يديك .

إنك مهما صورت لن تستطيع أن تمسك الإيمان في صورة . هو ما كنت ابحث عنه .. إنما وجد لنعيشه لا لنصوره . ساعتها وحدها سيكتمل هذا المعرض .

وتكتمل الحياة .

قربـــان

هو :

لم يفهم من حديثها الأخير أي شيء . كانت غاضبة ثائرة أما هو فوقف ينظر بعين بدا مما ارتسم على وجهه أنها لا تبصر . على لسانه عبارة واحدة : "ممكن تهدي وتعيدي من الأول بالراحة" .

لكنه يعلم أن مقاطعة كهذه كفيلة أن يشم بعدها رائحة احتراق الباب البعيد تضامنا معها .

ماذا حدث لكل هذا . تصرف بتلقائية كما تصرف في ذلك اليوم البعيد . لكن ردتي الفعل اختلفتا كثيرا . يومها كان الصمت الموشى بابتسامات لا تكتمل هو اللون الحاضر بقوة . أما اليوم فكل الألوان حمراء احمرار النار .

لقد تغيرت نفسه عنها . هكذا أحس ولم يدرك سببا . حاول الحفاظ على صورة الود (لكن الصور تتلف سريعا إلا أن تكون

صورة في مرآة لا تفارقها) . فقرر أن ينهي الامر وينفض منه كفيه : لم أعد أراك كما كنت . ربما لرمد في عيني وربما لاختلاف الضوء الذي كنت أرى فيه و لعله اختلافها هي . لا يمثل هذا شأنا ذا قيمة ما دامت النتيجة واحدة عنده . لم تعد كما كانت ولأنه اعتاد حساب كل شيء فقد سار كما سار . إنها معادلة لم يتساوى طرفاها وانتهى الأمر .

سأله صديقه : وكيف فعلت هي ؟
قال: صمتت . ثم ضحكت . ثم لم أعد أميز من حديثها شيئا . لكنني الآن أخفّ !

هي :
صوته اليوم يأتي مختلفا عما اعتادته . لكنه يضرب لها موعدا وهي التي لم تره منذ أسبوع . مازالت فرحتها بلقائه كما هي منذ التقيا أول مرة . مازال كل شيء فيه يعجبها . و يشعرها بتفوق أيضا .

وجاءها على مهل ليس في وجهه شيء من علامات الحياة .

شيء واحد تملكها . شيء واحد هو دواء الحياة لكل نفس ، كانت ترغبه بقوة، أن تبكي، لكن البكاء لا يصلح الآن ،ليس

أمامه وهو الذي يرى الأمر أبسط من كأس ماء . ذوت في عينيه أيام و غاضت أنفاس وتبعثرت أحلام . ويبتسم كأنه الفاتح الذي يرفع الضرائب عن أهل مدينته!

ليس بيدها أن تعذره أو تغفر له . إن ما مضى ليس ملكا لها أو له . ماذا تفعل الأيام فيما تسمع . كيف يفسر لها هذا الأمر . وكل يوم توقَّف له ليمنحه السعادة التي كان يسعى إليها . ألم يقف لنا هذا القمر كثيرا . ألم يترك كل هذه الدنيا ليكون معنا . من يعذره منه إذا . من يعذره من الورد التي كان يحمله . من كلام كان يلفظه . لقد كان حقا يلفظه . الآن أدركت أنه لم يكن ينطقه كأنه أهل لسانه . بل كان يلفظه كأنه غريب داره .

ليس لها أن تغفر أو تصفح . إنها قيد غفران الزمان . إن غفر هو ارتاحت وإن بقي يحمل هذه الإهانة في حقه فهو الألم لها . لقد جرح بحديثه الزمان كله . لكن الزمان لا يتألم وقد علم منذ قديم أن هذا الألم إن لم يصب واحدة من بنات حواء اختنق ومات ولما كان موت الزمان أمرا يستحيل حدوثه فقد كان لابد من القربان . ولا بد من بنات حواء أن يكُنَّ هذا القربان .

الزمان :

ولا يزال ذلك الكائن يعبث في أوصالي لا يعلم أي شيء يفعل . ترك عينيه وأبصر بكل حاسة سواها . وترك أذنيه وسمع بكل شيء آخر . لم يعلم أن كل شيء هو في أصله له فاحتال ليحصل عما هو بين يديه فخسره و خسر نفسه ولم يتعلم !

إعلان

– لك ما تريدين .. عشرة ، عشرون ، أربعون ، خمسون ألفا .. جيد؟!

لم تكن تتصور يوما أن تقف هذا الموقف .. أن تعرض عليها هذه الأرقام .. وأن .. توافـــــق !!

– ومتى تريدون ؟!

– ستحضرين غدا مساء .. ونتدبر الأمر .

كيف وصلت إلى هنا . كيف اتخذت قرارها . كان إعلانا صغيرا علق على إحدى الأعمدة ، ربما كان كغيره من الإعلانات التي يوضع منها كل يوم مئات .. أولها تلك الكلمة الشهيرة التي كانت تتلهف عليها في أول كل إعلان .. (مطلوب للعمل) لكن هنا كانت

(مطلوب) تقف منفردة دون (عمل).

سارت يومها كثيرا وهي تفكر ، ما الذي يضيرها لو قبلت ، هي الوحيدة المنفردة التي لا يعلم عنها أحد شيئا .. وحده الفقر هو الذي يعلم . وحده الأسى هو من يطرق بابها .. سواهما لم يعرفها أحد .. حتى الذين عملت لديهم لم يعرفوها . كانوا ينادونها : يا بنت.

روحي يا بنت تعالي يا بنت .. ماذا علموا منها سوى أنها خادمة .. خادمة تسكن ثيابا بالية مرقعة كل رقعة فيها تخفي تحتها جراح أيام طويلة . لم يعلموا أن هذه الأسمال تحجب دونها حياة كتلك الحياة التي تدب فيهم .. أن دما كدمائهم يجري في عروقها، يغذي بشرة لو أزال الدهر ما وضعه فوقها من شقاء لكشفت عن بلور تكاد الشمس تلمع فيه ، وكأنما خشي الكون أن يقف النسيم حولها لا يجاوزها مما يجد من سحرهـــــا . فتهلك الدنيا دونها .

لم تكن تملك سواه .. بذلت كثيرا لتحافظ عليه .. طردت مرات .. طوت الليالي لا تملك من الأرض أكثر من غبار نعليها . لكنها بقيت كالنجمة .. نحيلة من جوعها ، مضيئة في عليائها.

في أكثر القوانين حتى تلك التي تحكم كيمياء الجسد والدواء تقف عبارة هازئة دوما : فوق حد معين يصبح هذا القانون كالعدم .. لا قيمة له .. حتى الحدود الشرعية ذاتها تتوقف ، عندما يعجز البشر ذلك العجز المطلق لا يمكن إلا أن تقف . وقد بلغت هي هذا الحد وجدت الإعلان .

لو أنها نظرت في الطريق وهي تسير لسألت نفسها : لماذا تغير طريق بيتها .. لم تكن تعي في الحقيقة ما حولها .كانت تفكر لماذا تحتفظ بهذا الجسد ولمن ؟! . من يهمه أمره . من يعنيه . إن لم يأبه أحد بحياتها فكيف به .

وماذا لو.
حاولت أن تصرف الخاطر سريعا لكنه ألح ، ماذا لو فقدت حياتها ؟

حتى ولو حدث . فالموت ذاته أهون .. لماذا نبقى على الحياة مادامت لا تهبنا ما نريد .. إن يوما واحدا مما صوره لها خيالها ليستحق أن تبذل في سبيله كل أيامها.

عندما أفاقت كانت قد وصلت .. رفعت رأسها فإذا نفس الإعلان معلق على باب عمارة تحمل ذات العنوان الموصوف .. لم ينتظر عقلها أن تقرر . اكتفى بذلك اللمعان في عينيها وقرر هو .. كل ما تبع ذلك لم يكن إلا خواطر تقطع الطريق .

قرأت الإعلان مرة أخرى:

مطلوب شخص للتبرع بكيلة ، فصيلة الدم (**O**+)
ملأت صدرها بالهواء ... وصعدت ..

التماثيل الكبيرة التي في الميادين

"وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً"

النساء 38

ظلت تلك التماثيل الكبيرة الرابضة في ميادين المدينة تحمل معنى واحدا في رأسه ، وتتعلق بعبارة واحدة لم يسمع غيرها : غدا يا بني تكسر بيديك هذه الأصنام . وكبر وكبرت في نفسه النبوءة والحلم . واتسعت الأصنام من التماثيل الكبيرة التي تملأ الميادين إلى الذين

يصنعون التماثيل الكبيرة التي تملأ الميادين ، إلى الذين يشيرون بها وإلى الذين يسكتون عنها .

وتحول الحلم من يقظته إلى حلم يراوده كل ليلة . يرى بيده فأسا وعلى كتفه مخلاة يدور في شوارع المدينة يكسر تماثيلها وكلما انتهى منها عاد فوجدها قائمة لم تمس . فيزداد عزمه ويدور يكسرها ويعود فيجدها كما كانت قائمة . ولا يقطع دورانه إلا استيقاظه عند الفجر يتوضأ ويصلي ويستعيذ بالله من هذه التماثيل الكبيرة التي تملأ الميادين.

أنبياء الله جميعهم كسروا الأصنام . نبي الله إبراهيم كسرها بيده ورسول الله محمد أرسل في المدائن من يكسرها و حطم هو الأصنام حول الكعبة فعلام إذا أصبح يتوارى من نفسه إذا راوده ذلك الحلم . كان يجد في نفسه فيما مضى سعادة وعزما ثم تبدلت السعادة خوفا والعزم رهبة . بقاء التماثيل قائمة على حالها في كل ليلة يرى فيها الحلم يفزعه . ما جدوى تكسيرها إذا، ولماذا تقوم . إنها أحجار لا حياة فيها ، من يعبث به ويقيمها إذا؟

تردد على المساجد يسمع منها . أقتنى كتبا كثيرة . لم يدع زاوية سمع عن محاضر فيها إلا طرقها ولا كتابا يمس ما هو فيه إلا اقتناه .

وزادت حيرته . ليست الأصنام هذه الأحجار وحدها ، إن كل ما يعبد من دون الله أصنام ، هكذا قال الشيخ في شريط له قديم وجده على باب المسجد . كل شيء وكل أحد أصنام . الآن عرف لماذا تعود التماثيل للحياة في الحلم ، لأنها ليست هي المعنية !

هدأت نفسه قليلا . هذا الشيخ ثقة ، اعتقلته التماثيل الكبيرة لأنه يريد تحطيم التماثيل التي في الميادين . وعلينا أن نتم ذلك .

و تغير الحلم الذي تعود أن يزوره ، أمسى كلما حطم تمثالا عاد ليجده تماثيل كثيرة . كل حجر يسقط ينبت منه تمثال جديد حتى تملأ التماثيل الجديدة الميدان مكتملا و يظل هو يكسر والتماثيل تزيد حتى لم يعد في المدينة شارع إلا قد غمرته التماثيل .

وعادت حيرته الأولى ، ما معنى هذا الميلاد وهذه الكثرة . إنه ماض على عزمه يحقق النبوءة والحلم . يريد أن يحققها لله ، فلماذا إذا لا يساعده الله . يحكي الشيخ أن الرسول كان يشير إلى الصنم بسواك في يده فيتهاوى صريعا . ما أقبح أصنام اليوم ، أصبحت أكثر تجبرا وعنادا . ستكون كلها وقود للأصنام الكبيرة ذات الأرواح. هكذا قال الشيخ .

وتحولت الحيرة إلى ضيق . والضيق إلى هم وكآبة . حتى لم يعد يرى في أحلامه إلا كونا واسعا مظلما لا تبدو فيه نهاية ولا تمس فيه أرض. ينادي فلا يسمع رجيع صوته .

في برنامج مباشر على إحدى القنوات كان ذات الشيخ الذي اقتنى شريطه عند المسجد يقول : إنه لم تعد هناك أصنام ، فالأصنام كلها كسرت على عهد رسول الله وأننا أخطأ فهم النصوص و أن الشمس طالعة والنور ضاف وكل الذي كان سقط لسان وأفكار تائهة رشدت واهتدت .

لم يزره حلمه في تلك الليلة . حلما جديدا زاره ، رأى شيخه يجر أناسا من قفاهم ويحملهم على جواده وعلى وجوههم رضا الطاعة ، ثم يقف بهم عند سفح جبل يتركهم على حافته ويعود .

ديسمبر **2007**

يوم جديد

سأكون اليوم شيئا جديدا . ليس بالضرورة أن يكون هذا الشيء ذا قيمة ولكن يكفي أن يكون جديدا غريبا لم أعتده من قبل . ما رأيك إذا أن أكون مهذبا أكثر ! لطيفا أكثر ! واعظا !.. لا بأس . أفهم الحياة ! وكيف يتأتى لي ذلك ؟ . فقط سأتكلم كأنني أفهمها و على الذين يدعون أن حديثي عن غير فهم أن يقيموا الدليل .

الآن أنا غير هؤلاء الذي يملؤون الدنيا . وإلا ما الذي سيرغمهم على الاستماع والتصفيق مبهورين . (أنا) أنا التي أريد أن يراها الناس لا أنا التي تختبئ متكسرة خلف هياكل الكلمات فليضع كل منكم وعاءه الذي سألقي فيه بمادة الحياة التي غابت عنكم . ستفيدكم حتما ، جربوا يا سادة .

عند أول انعطاف له بعد شارعه الذي يسكن فيه توقف عند بائع الصحف . يبيع معها السجائر وفي الليل يبيع أشياء أخرى كثيرة ابتداءا من الحشيش الأفغاني وحتى الحبوب الزرقاء . لا يشعر بفارق كبير في بضاعته كلها . كل العناوين تبدو اليوم مختلفة ،

جديدة . مادمت أنا جديدا لابد أن تكون جديدة . يقتلون ! علام الغضب ولم يتوقف القتل في الدنيا منذ قابيل . يهدمون المساجد ! وهل فعل الكفار غير ذلك منذ كانت هناك مساجد . يسبون الإسلام ! ذلك اصل وعندما يصمتون نخشى لأنهم إذ ذاك يبيتون ما لا نرضى من الفعل .

لم لا أتناول إفطاري قبل أن اصل إلى العمل . وأستريح من شطائر زكي التي لا أدرك ما الذي تحتويه إلا إن سألته . وعند طرف وعاء الزيت الذي تهتز الصورة فوقه مد يده ليأخذ شطيرتين من يد البائع . لا شيء هنا جديد . لكنه يعلم تماما اليوم أن احدهما فول والآخر طعمية وهذا العلم في ذاته يعده نصرا . سيأكلها والشمس تكسوه وسيشرب عصير قصب أيضا وربما مر على ملمع الأحذية التي يجلس كل يوم قرب المصلحة يلمع حذاءه مع أنه لم يفعل ذلك منذ جاء أول مرة يتقدم بأوراقه .

حوله عربات وطلبة وناس وشمس . تبدو اللوحة أجمل مما هي كل يوم . فهو اليوم ينظر للحافلات ولا يعنيه أتفوته أن يدركها ؛ لانه عزم ألا يركب . فهي إذا صورة يرقبها لا املا يرجوه . وهؤلاء الطلبة الذين يخشى كل يوم زحامهم وهم لا يميزون بين الكبير والصغير يريدون الوصول ولا يعلمون إلى أين ، أيضا لا يعنيه أمرهم لأنه لن يركب معهم . أصبح كل هذا في حكم الصورة . والصورة حتى وإن بدت مفرداتها مؤلمة فألوانها تشفع لها .

الشمس المنعكسة على زجاج الحافلة المكسور والمنعكسة ايضا على مصباح السيارة الفارهة التي تجاور الحافلة ذات الزجاج المكسور كل ذلك يضيء كأس العصير التي طلب إلى البائع أن يغسلها جيدا فيجعلها أجمل .

ما أجمل الحياة عندما لا تكون فيها . عندما تراها سائحا . مصورا كأنها لا تعنيك . هل يرانا الطير إذا هكذا . حتى الغراب الذي نكرهه يبدو مستمتعا بصورتنا وهو يراها من أعلى . ما أغبى هذا الخاطر . لا أحب أن يراني الغراب ويحكي لأبنائه أنه شاهد رجلا يسير يشرب العصير وقد نسي أحدى ساقي سرواله مرفوعة .

سارع وعدل ملابسه ونفضها من غبار لم يره وتابع .

خلع حذائه عند الملمع و وقف حافيا على جريدة صغيرة . وبين قدميه كان خبر لم يبد كاملا لكنه استطاع أن يتمه بغير جهد : " ...... يجتمع بمجلس الوزراء لإقرار قانون ....."

الآن انعكست الشمس على حذائه أيضا و بدا إثر ذلك انطفاء لون ثيابه . كم هي عرجاء هذا الشمس تعكس نورها على الحذاء وتنسى ما فوقه .

وتابع .

عند درج المصلحة كان الجو هادئا وعلى طاولة موظف الحضور التي تنعكس عليها الشمس المتسللة من الباب لم تكن الساعة في موضعها.

رفعت لأنها دقت التاسعة والنصف ..

يونيو 2007

صبــــــح

كأنما انسكب من السماء فتخطفته المدينة التي لم تطرد النعاس عن عينيها فغرقت فيه حتى لا تكاد ترى إلا البياض يلفك . أتحرك في الشوارع بحفظي لها و بقليل من الضوء الواهن الذي يصل من المصابيح التي لم تنطفئ بعد . إضاءة المصابيح في الضباب عمل أشعر ألا قيمة له فهذا البياض الذي هو أغنية الصباح يبتلعه كله . الأسود هو ما يعيد لنا ضوءنا فنراه .

لم يكن الوقت مناسبا للاستمتاع بالمدينة الغارقة في السماء الذائبة حيث تبدو ممتدة خلفي وأنا أعبر الجسر إلى الضفة الأخرى من النهر.

ضممت معطفي وأرحت كفي بها فيما كانت الأخرى حانقة لبقائها في الهواء البارد إذ لابد لإحداهما أن تحمل حقيبتي وأنا أعلم أن الحنق يجعل الوجوه حمراء أما هنا فقد جعل يدي زرقاء وجعلها

أيضا صلبة كالزجاج . كنت أتخطى الجميع ، سيارات ودواب ومارة . لا أدري لماذا قذفوا بسيارات (المحلة) لتكون آخر سيارات في هذا الموقف . ولو كان سفري لبورسعيد لوقفت هي الأخرى متطرفة.

كان الطريق إلى آخر الموقف طويلاً وضيقًا فلا تمر منه إلا سيارة ورجلين . وعلى يسارك سور محطة السكة الحديد وخلفه بناء المحطة القديم يحمل تاريخ افتتاحه **1931** . لكنه أيضا ليس الوقت المناسب لأن تتعلق عيني باللوحة التي كتبت بخط الثلث تدل على المحطة .

بلغت السيارة ولم يسبقني إليها إلا رجل قد احتل المقعد المجاور للسائق وفرد أوراقه بين يديه . أحب هؤلاء المغرمين بإنهاء أعمالهم في المواصلات العامة . و احتلت المقعد الذي يلي السائق سيدة ريفية أجلست طفلة كأن قد ضربها النوم في وجهها فتورم ونسي شعرها فلم يصفف منذ يومين . ولما كنت مغرما بالنوافذ حتى و إن كان السفر ليلا و في السماء . ربما هو الأنس بالكون أو هو الرغبة في أن أخالط الناس بشق واحد ويبقى شقي الآخر حرا لي أصرفه كيف أشاء . وعلى هذا جلست في المقعد الذي تلاها ولم تمض دقيقة حتى جاءت سيدة كأن كل شيء فيها قد غسله الورد

و بيدها طفلة كأن النهار قد طلع في وجهها قبل أن يكتمل حولنا . فأجلستها وجلست جوارها فسمعت صوت السائق يصرخ : مينفعش يا مدام . شيليها على رجلك .

فردت قبل أن يكمل : هحاسبلها . فعاد إلى ندائه : محلة واحد . واحد المحلة .

قليلون هم من يعتبرون أبناءهم كيانات مستقلة فتجلسها على مقعد منفردة وأقل منهم أولئك الذين يجعلون أطفالهم كيانات مستقلة حتى في بيوتهم .

دقيقة أخرى واكتملت السيارة وسمعنا بسملة السائق والفاتحة للنبي . التي لا أفهمها ولا أعرف من هو النبي الذي يحتاج منا هذه (الفاتحة) فرد رجل جلس في آخر السيارة : قد جعل النبي بدلا من هذه الفاتحة دعاء وتلا دعاء السفر بصوت مرتفع فردده الركاب .

لما رأت السيدة التي كانت عند النافذة أن جارتها قد أجلست ابنتها بينهما غرها هذا المكان الفارغ نوعا فأنزلت ابنتها هي الأخرى لتجلس جنب صاحبتها . والصحبة هنا صحبة السن وحده ولم يلبثا أن تعارفا تعارف الأطفال و وقفتا جنبا إلى جنب

تتكئان على ظهر المقعد فبدت واحدة في صفاء القمر وبدت الثانية كأنها صورة قمر تعهدها طفل بأقلامه فمزق الصورة ولوّنها وجعل للقمر عينين وشفتين حتى بدا كأنه يلعن الليل.

وقفتا فوجدت نفسي إذا نظرت لهذه رددت ابتسامتها بابتسامة و إذا صُرف نظري تلقاء الأخرى خجلت لأني لا أجد لها ابتسامة تناسبها وتمنيت أن في وجهي ابتسامات المحادثات فأجعل لها وجها تبدو أسنانه . كأن الابتسامات قد وزعت مع الأرزاق فلا حظ لأناس فيها . وحِرْت إذ لو كان ابتسامي للأولى ابتساما للطفولة وكنت ممن يحبونها فلِم انعقد وجهي للثانية وهي إحدى صور الطفولة ؟ فليست الطفولة من ذوات الوجه الواحد .

وجدتني أسأل:
ازيك .
قالت الأولى : حمد لاه .
وضربتني الثانية بيدها لأعلم أنها أيضا (الحمد لله بصحة جيدة وهذا الدليل) .

لدي يقين أن من أراد أن يكره الأطفال فليرهم في سيارات النقل العام . لاسيما في السفر وقد كنت دليلا حقيقيا على ذلك .

سألت أمها ماما . هي دي ساقية . وأشارت إلى مالم أره فردت أمها وهي بين النوم واليقظة ولم ترفع رأسها : أيوة اقعدي ساكتة . فعادت وسألت . ساقية يعني ايه ؟ فلم ترد أمها لأنها لم تسمعها وخفت إن أجبتها أن لا أسلم من أسئلة كهذه : همَّ عملوا الكوبري ليه ؟ والبقرة دي ماشية لوحدها ليه ؟ و اشمعنى الشجرة دي واقفة ودي قاعدة . لكن صاحبتها ابنة النهار حملت عني العناء وإن لم تقطع طريق الإزعاج فأجابت : الساقية هي اللي بتخلي الأرض تشرب . فصمتت لحظة وقالت : وهي الأرض بتعطش . فلم تجد تلك جوابا لهذا السؤال فهزت أمها وقالت لها : هي الأرض بتشرب ليه يا ماما؟.

فأجابت تلك : علشان الزرع يطلع . فتمنيت أن تقتنع وألا أشهد الساعة ميلاد مدام كوري جديدة هنا في هذه السيارة .

وكان بين يدي كتاب لم أقرأ فيه كلمة فقالت : عمو انت بتقرا ايه قصة . ولم تنتظر حتى أجيب إذا بدا عليها كأن قد تذكرت وقالت لصاحبتها (المنكوشة) وهي تجلسها احكيلك حكاية السندرللا . وشرعت تحكي .

قلت ضمنا اثنتين ينشأن على حكاية السندرللا وغيرها الشاطر حسن والأميرة والعفريت الأزرق . وتذكرت صديقةً لا تحب سندريللا وتقول غاضبة إن ورد ذكرها : دي سلبية .

ولعل غضبـــــها غيرة .

يناير 2007

عوض أفندي

مسرعا كعادته كل يوم أتم عوض أفندي ارتداء قميصه وحذائه وزوجته تلف له شطائره التي سيأخذها معه ، منذ أن عين في المصلحة التي يعمل بها بنظام المكافأة من عشر سنوات وهو حريص ألا يصدر منه ما يكون نقطة تمنع تثبيته . نزل من بيته يكاد يتعثر في حظه السيء ، لم يطل انتظاره للحافلة فركبها واقفا وبجواره رجل حسن الهندام لا يبدو أنه من أهل هذه الحافلات .. لم تلبث الحافلة أن امتلأت حتى تدافع الناس فيها وأصبحت قدم عوض أفندي نهبا للمارين حتى استقرت تحت قدم هذا الرجل . كان ثقيلا إلى حد ما مما آلم عوض أفندي كثيرا .. لكنه آثر الصمت لأن مظهر الرجل يبدو عليه أنه ممن يخشى سطوته .. فكر قليلا أن من يخشى سطوته لا يركب مثل هذه الحافلات .. لكنه عاد وقال : لعله ولعله .. وبقى صامتا .. ومع كل حركة يصدرها الرجل يزداد ألم عوض أفندي حتى نفذ صبره فقال للرجل بأدب : حضرتك ظابط ؟

فأجابه : لا .

فرد عليه مستعلما : ابن ظابط ؟!

فأجابه أيضا لا ..

فقال : متجوز بنت ظابط ؟!

فقال : لا .

فصرخ فيه عوض أفندي : أمّال دايس على رجلي ليه يا ابن ال... ووكزه ونزع قدم.

كانت الحافلة قد وصلت للمحطة التي ستزل فيها عوض أفندي .. فأسرع ونزل .. عادة لا يساعده حجمه الكبير نسبيا على سرعة النزول . حتى إذا وصل إلى الباب يكون السائق قد تحرك ، فيصرخ فيه و ينزل والحافلة تسير . يسقط احيانا ، ويمر الأمر بسلام أحيانا أخرى ، لكنه دوما يلتفت للسيارة ويلعنها وسائقها ومن عينه بل والركاب جميعا.

كم يتمنى لو يستطيع الحصول على إجازة يستريح فيها من هذه الحياة .. لكن الإجازات المدفوعة لا تكون إلا للكبار .. تصلهم مقدراقم في بيوقم ..

عندما جلس في مكتبه سمع زملائه يتناقشون في أمر الانتخابات وأنها ستكون جديدة هذه المرة في هيئتها وصفتها .. لم يلق أذنا لهم فلا يعنيه من الأمر شيء مادام سيبقى كما هو يزاحم الناس في الحافلات ويتعثر في كل درج يصعده .. حتى سمع أحد زملاءه يقولون إن المرشحين من العاملين بالدولة يحصلون على إجازات مدفوعة الراتب .. هنا لمعت الفكرة في ذهنه بسرعة .. استعلم من زملائه عن شروط الترشيح .. ولم ينقض الأسبوع حتى قدم أوراقه وحصل بموجب هذه الأوراق على الإجازة التي حلم بها .

في دائرته لم يكن مرشحا على مقعده سوى اثنين من كبار رجال الدائرة .. قدم كل منهما طعنا في صاحبه ، وقبل كلا الطعنان . وأصبح عوض أفندي المرشح الوحيد في الدائرة .. وفي إحدى سهراته اليومية على قهوة المعلم قرنفل هتف أحد أصدقائه مازحا : عوض أفندي عوض أفندي .. أنت أملي أنت سندي .فجاوبه الناس بالهتاف وتحطوا حوله

بعد أيام كانت الشوارع قد امتلأت بلوحات تبايع عوض أفندي نائبا في البرلمان . واجتمع أصدقاؤه حوله يجمعون له من أموالهم ويقيمون له المؤتمرات ويكتبون له الخطابات وأصبح عوض أفندي عضوا في البرلمان .

ملأت الرهبة صاحبنا عند أول زيارة له للمجلس .. من فخامة المكان وفخامة الحضور .. حفظ القسم مئة مرة ودربته زوجته عليه في البيت ألف مرة .. وأصبح الوقوف أمام المرآة ومحادثتها من عاداته اليومية .

في أول جلسة يجتمع فيها أعضاء مجلسي الشعب والشورى لسماع خطاب الرئيس .. تكون القاعة مزدحمة وتتسع المقاعد للنواب بقليل من المضايقة لبعضهم .. كان مجلس عوض أفندي في طرف أحد المقاعد .. نصفه على المقعد ونصفه في الهواء .. احتمل الأمر في أوله .. لكنه بدء يتذمر .. لكنه بلع لسانه خوفا من أن يكون من بجواره أحد من يخشى سطوته .. حتى بلغ السيل الزبى ولم يعد في القوس منزع فسأل جاره بهدوء وبصوت خفيض : سيادتك وزير .

فقال : لا

- ابن وزير ؟!
- لا .
- متجوز بنت وزير ؟!
- لا .
- طب مضايقني في القعدة ليه يا ابن ال ..

سطح

منذ أن ارتفعت أسعار تأجر الغرف في العبارة ذلك الارتفاع المضاعف الذي لا تبرره خدمة مضافة .. وعم (كمال) يكتفي بحجز التذكرة (سطح) ويقول : يا ابني كلها عشر ساعات ونوصل مصر . ولا فرق في ذلك أسافر في الصيف أم في الشتاء .. يلتف بعباءته ويتوسد حقيبته ويترك عينيه تجولان في النجوم ... أما عقله فقد سبقه إلى قريته القائمة على كتف النيل .. حيث هو أوسع ما يكون .. هناك حيث تبدأ الحياة في السريان في هذه الأرض ..

عم كمال " ترزي ايده تتلف بحرير " ، منذ أن فقد ساقه أيام حرب الاستنزاف ولم يعلم له حرفة سواها . سافر إلى العراق في النصف الثاني من السبعينيات . كانت العراق وطننا لنا . أرضها العطشى لعرق أبناء النيل . لفؤوسهم لدمائهم . سافر مع شباب من قريته ، كل منهم تمتلئ نفسه بآماله ، هذا يريد أن يبني (داره

) بالطوب الأحمر . وهذا يريد أن يشترى لزوجته (راديو بروحين) . كانوا يحملون أحلامهم الصغيرة في حقائبهم . لم يعلموا أن هذه الحقائب ستمتلئ من آلام الغربة مثلما امتلأت بهذه الأحلام .

عاد سريعا من العراق لأنه لم يحتمل الغربة .. كان يقول (الغربة تنفع لغيري متنفعليش) ، رزق بأبناء ثلاث .. مرزوق وكنوز وغوايش .. كان يتحدى الفقر بأسمائهم .. لكن الفقر لا تقهره الأسماء ، غدا تكبر كنوز وتبقى عروسة ، وبعدها غوايش . وهو لم يرث أرضا ، والخياطة لا تدر له ما يكفي (علشان يحوِّش لبناته) .

لم يجد أمامه إلا السفر.

وتحمل الغربة مرة أخرى تحمله اليوم لأجل أبنائه ، أليس من حقهم أن يعيشوا عيشة كريمة ..

كان أنسه في غربته أن يتحدث عنهم ، عن نباهة مرزوق وخفة دم كنوز . ولماضة غوايش ، عن سعدية ابنة أخيه وعزمه على أن تكون زوجة ولده .. كان يدور على المحلات بعد صلاة العشاء بساقه والعكاز يختار الأقمشة التي سيحملها معه لابنته العروس .. عندما عرفته كانت كنوز قد تزوجت و غوايش تقدم لها ابن

الحلال .. كنت أذهب معه أحيانا للسوق .. وقف مرة أمام محل لفساتين الزفاف .. وقال لي : ايه رأيك .. اهو واحد من دول يكون أحلى للبت غوايش .. انت عارف أنا مبفهمش في الحاجات دي .. ويظل يصفها لأختار له ، لم يكن يصفها لي إنما يجد سعادة في كونها معها .. وهو يختار لها.

في السنوات الأخيرة ، كانت أحواله قد بدأت تضطرب ، فالحياة هناك أصبحت تجمع مع ألم الغربة آلاما كثيرة أخرى . آلام صنعتها مقاصد ومشاعر قد يكون لها ما يبررها ، لكنها ككل المقاصد الشريفة .. عمياء عن حقوق الضعفاء أمثال عم كمال . ومع ذلك تحمل اجتماع هذه الآلام بعضها فوق الآخر .. ليعود لابنته بما اختاره لها .. وليرفع رأسها بين أترابها .
جمع في حقائبه ذكريات سنوات الغربة ، وقرر العودة .. لم يعد يحتمل ، كل يوم قضاه هناك أطعمه قطعة من قلبه ، لم يعد في قلبه شيء يطعمه لتلك الأيام العجاف التي لا تعرف وفاء لهذا القلب ، أصبح يشعر أنها أيام عاقر لا تلد.

وكعادته اختار السطح ...
لأنه أوفر.

وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي لا فرق فيها بين السطح وبين سواه ..

حين يضحك البحر

يزعمون أن البحر يحب الصبايا أكثر منا نحن الصبيان ، فيضحك لهم ولا يضحك لنا ، مع أني أسلم عليه دوما و أنا على جسر قريتنا الذي يعبره ، أنتظر السيارة التي تنقلني إلى المدينة القريبة .

كل صباح ألقي بصري لأراه سائرا بين الطريق وبين خط القطار القديم طارقا كل قرية ، و أبقى معلق البصر به في رواحي لمدرستي في المدينة و عند عودتي منها . أبحث عن علة حبه للصبايا و عكارة وجهه معي .

رغم أن المياه تملأ بيوتنا في قريتنا إلا أن النساء والفتيات لازلن يختلفن إليه يغسلن الثياب والأواني ويضحكن معه ، أراهن إذا غدوت وإذا رحت فأقترب من تصديق الزعم بالحب الذي بينهما

. وإن صح هذا فهل كتب للبحر في كتابه الأزلي أن وجوهنا ليست مما يضحك لها .

وعرفت فيما بعد أن هذا البحر صغير وأنه يولد من بحر آخر كبير في المدينة ، ورغم وجودي في المدينة أوقاتا كثيرة إلا أنني لم أحظ برؤيته إلا متأخرا ، بدا لي بين بنايتين في آخر الطريق بعيد الأفق ولما قاربته وجدت على حافته سور يمتد بطوله . سجين كأحلامي ، عابس كولده الذي أعرفه .

...

كانت أحلامي صغيرة لا تملأ منديلا إلا أنها تعلقت بالمنديل ورفضت الخروج . ست سنوات مرت بعد تخرجي جربت فيها أعمالا كثيرة لم تفلح كلها في محايلة الأحلام لتترك المنديل . بعدها ولدت في نفسي رغبة السفر ؛ إلى أفق ذلك البحر الكبير الذي يضحك . ألم أخبرك أنني بعد رحلة البحث عن علة ضحك البحر علمت أنهم لم يعنوا به البحر الذي يعبر قريتنا ولا أبوه الذي في المدينة. إنما عنوا بحرا آخر هناك في الشمال . بحر ممتد لا أفق له . أزرق كعيني مذيعة أحبها صاف كأنفاس أمي . رأيته أول مرة في رحلة مع زملائي وبقيت صورته تخايلني ، راسخة لا تبهت . إنه البحر الذي يضحك ، ويرقص أيضا . وعدت أحدث أصدقائي أن

بهجة الدنيا تولد فوق مائه فيحملها الهواء إلى الحياة كلها.. لن تصدقني إن قلت لك أنني رأيت الملائكة تغسل أطفالها فيه.

هتفت سعيدا عندما عرض علي صديقي أن نعبره سويا إلى أفقه البعيد. زعموا أن هناك تسكن الملائكة التي رأيتها تغسل أطفالها . دعت لي أمي بحسن الطالع و انطلقنا .

تمنيت لو يتسع صدري له ، لو احتويته ببهجته التي يهبها للأرض . تسع ساعات وأنا واقف على سطح العبارة خالي البال كالسماء فوقنا، هادئ النفس كالبحر تحتنا . سعيد كالهواء حولي .

برد الجو ليلا فنزلت إلى الغرف أرتاح و أقرأ معهم ما ينبغي علي أن أقوله عند وصولنا إلى الشاطئ حتى يسمحوا بعبورنا .

ولما زاد اهتزاز العبارة وعلت فوقها الأمواج كأنها يد زكريا مساعد مدير مدرستي القديمة لم أشعر بالخوف . لا يمكن أن يخونني البحر ؛ ميلاد بهجة الدنيا ومغتسل الملائكة ، من يضحك لا يعرف الغضب ولا الخيانة . بحر قريتنا لم يكن يثور . كان رفيقا بحبيباته ، ربما لم يضحك لي لكنه كان يضحك لهن ، لم نسمع يوما أنه غدر بإحداهن . وهذا البحر قد ضحك لي ، ضحك كثيرا ولازال

يضحك ، صوته يعلو ، ويضحك . ماؤه يطير ؛ ويضحك . وتداخل ضحكه مع صراخ من حولي و لم أجد ما أبرر لهم به ثقتي فيه .

فأغلقت عيني لأنـــــام .

...

شمس ونور وملائكة .

...

ما أجمل النوم والبحر يضحك !

يناير 2008

فراق

جاء سريعا كصخرة هاوية . لم يسرع هكذا منذ مدة ، اعتاد التأخر كثيرا يرهقني حتى يأتي . جاء سريعا لكنه غير الذي تمنيته ؛ كنت أنتظر نوما كالذي غاب من زمن ، نوما يغزوني برفق . يبدأ خدرا لذيذا ينتشر حتى يملأني فلا أعرف متى جاء و من أين انساب .

صديقي الذي أحبه ، يعلم كيف يغسل لي يومي ، كيف يطوي أي صفحة ولو كانت كل أقلام الدنيا قد عبثت بها ويجعل الصبح نقيا لا دنس فيه . عندما أضع رأسي على الوسادة و استقر بجسدي على السرير وأغلق عيني التي أرهقها ضوء الحياة الصاخب يبدأ هو حكايته . همسا ساحرا ، ضوءا خافتا ، عطرا باردا ، و حياة جديدة .

أصبح يطيل النظر إلي من بعيد ولا يأتي . يعلم جيدا أني بحاجة إليه ، أوقن بهذا ؛ لم أشعر أن أحدا قد فهمني يوما كما فهمني هو ، فلماذا يغيب ؟ منذ متى لم يأت كما أحبه !! بحثت عنه ، انتظرته ، رجوته كثيرا أن يأتي . و عندما يجيء آخرَ الليل أكون أنا قد سقطت متعبة .

لم يبق إلا أن أجرب الأطباء ، أن أبحث عن النوم لديهم . أصبحت سريعة الضجر قريبة الغضب يعلو صوتي لأمور كنت أتجاوزها دوما . لم أعد أحتمل هذا الغياب ، تكاد رأسي أن تكون محجرا فيها ألف مطرقة . أكد لي أنه لا يخيف وأنه كأي دواء لا ضرر منه إن أخذ كما وَصف ، كأن الأطباء يعلمون أكثر منا نحن الذين نعاني !

صدق . و جاء النوم سريعا ، جاء كصخرة ولم يأت كسحابة ؛ جاء مرهقا قاسيا . جاء يخبرني أن اللذة لا يمكن انتزاعها عنوة ، لا يمكن الحِصول عليها معلبة . إنها هدية الله ولا تختلس الهدايا .

حتى النوم تعلم القسوة ! وأنا التي أردت أن أعلمه كيف يجيء كالنوم رفيقا ففشلت وتعلم منه النومَ كيف يأتي قاسيا .

لم يفهم أن الجمال أن يذوب السكّر في فمك لا أن تطحنه أسنانك التي لا تعي ، لا يؤخذ الحب عنوة . إنه رحلة هادئة تبدأ خدرا كما يبدأ النوم وتنتهي لذة كما ينتهي النوم فتصحوا وكل شيء في وجهك يبتسم للصبح .

أجمل الحب ذلك الذي يغزوك برفق كالنوم . همسا ضوءا عطرا وحياة .

آه ؛ كيف يعود لي صديقي القديم

في المعبــــــد

بقي على موعد القطار اربع ساعات كاملة ، ولا يبتعد المعبد عن المحطة إلا قليلا ما يعني أنه أمثل مكان أقضي فيه هذه الساعات . و في الأقصر ثلاثة معابد رئيسية وأثريات أخرى كثيرة لكن الذي يعرفه قليلوا المعرفة أمثالي هي هذه المعابد . أقربها هو معبد ألأقصر الذي اتجهت إليه .

وصلت سريعا إلى الجزء الداخلي في المعبد (فلست اثريا سأقف يوما عند كل جدرا وأستنطق الأعمدة) وهو مكان ضيق تتحرك فيه بحذر لئلا تصطدم بأحد وعند التفافي للعودة كانت سيدة تقف بين حائط المعبد والجدار المقابل . وهو جدار خارجي لمعبد صغير

عليه نقوش تشبه كل النقوش التي تراها هنا ، والمسافة لا تتعدى نصف المتر ما يعني أنه لن يمكنني العبور .

Excuse me

لم ترد .

قلت ربما لم تسمع . لو سمحت يا مدام . ولا هي هنا . أحاول مرة أخرى :

Excusez-moi

لم تنتبه أيضا ولما اعدتها عالية التفتت وكأنها تستيقظ من حلم بعيد و برطنت (أو هي فرنست في الحقيقة) عبارة طويلة لم أفهم منها كلمة واحدة ، لكنه بدا سؤالا وأنها تنتظر الإجابة .

– لست أنا ، ولا أحد أبنائه . ربما قد مر من هنا .

من الخطأ أن تخاطب امراة تراها للمرة الأولى بلقب مدام سيما إن كانت حسناء صغيرة (أو حتى كبيرة) . دوما ألق افتراض (الأنس) ابتداءا . لكنها لن تفهم على أي حال .

و لأن سوء الحظ شريك رسمي فأنا لا أعلم من الفرنسية أكثر من بعض العبارات التي قد تسعف في مطعم أو حتى في مطار لكنها لا تصلح لمصاحبة فتاة فرنسية حسناء . وهذا الحسن عبارة نسبية

فالمعبد من أوله بدا وكأنه خصص في هذا اليوم لناس عاملة نفسها خوجات . ولما بدت العجمة في وجهي سألَت :

Parlez-vous anglais?

فقلت : نعم يا سيدتي اتكلم عربية يمكن حملها على انجليزي . لكنها مفهومة على أية حال . فأعادت سؤالها الذي افتتحت به الحوار : إن كنت أستطيع أن أقرأ لها المكتوب على الجدار .

طب انت يا آنسة مش معاكو مرشد سياحي هو اولى بالورطة دي مني . سايبة الفوج وسارحة لوحدك ليه . لم ألتفت في الحقيقة إلى أي من الرسوم التي نقشت على الجدران ولا عنيت بها . تبدو جميلة ومتسقة لكنها لم تعن لي أي شيء . زرت أماكن كثيرة تحتوي على آثار مصرية ولم ألتفت إلى ما كتب . أحيانا تعجبني الألوان . يعجبني بقاءها . يأخذني الحجم والتماثل . لكن لم أهتم (هو الأخ كتب ايه على قبره أو مذا كتبوا على المعبد بعد بنائه ؟!)

لكن : هو في مصري يقول معرفش ؟! . مكنوش بنو الهرم ! .. وبحرفية من يقرأ تاريخ مصر القديمة منذ نعومة أظفاره انطلقت أحكي لها أن ما اقرؤه الآن يحكي قصة بناء هذا المعبد وأن الملك يشكر في هذه القطعة كل الذين شاركوا في بناءه وخصوصا كبير مهندسيه الذي هو في الحقيقة ابن خالته (مهو كان عندهم واسطة

أكيد . ملك بقى هنشاركه) . قالت إنها قرأت مرة أنهم وجدوا على قاعدة تمثال أحد الشخصيات الشهيرة عبارة تقول إنه بنى التمثال بغير غصب على المثالين وأنه كتب وصايا لابنه ليكون محمودا بين الناس وأنه كتب كل الخير الذي عمله في حياته . فهل على هذا الجدار شيئا من هذا . كدت أقول نعم . ثم تذكرت أن هذا معبدا و ليست مقبرة وأن الأرجح أنها تراتيل وتعاويذ ونصوص مقدسة .

تركنا هذا المكان وأنا أسمع بطرف أذني مرشدا يحكي حكاية أخرى سمعت فيها ذكر الاسكندر ولا اعرف كيف وصل الاسكندر إلى هذا المكان .

سألتني من أي مدن مصر أنا . أمن القاهرة ؟ إذا كان أهل مصر لا يعدون مصر إلا القاهرة يبقى الخوجاية هتعرف حتة تانية منين . قلت لها إنني من مدينة اسمها المنصورة شرق الدلتا وانها على فرع دمياط تحديدا وأنها .. لأ مش أنها ، أكيد موصلتش في الحكاية إلى ذكر لويس وعملته السودة . وأنها سميت المنصورة لأنها هزمته في الحملة الصليبية و أسرته أيضا . يعني مش معقول نزعل خوجاية قمورة علشان حركة عيال زي دي ثم إن الناس طول عمرهم بيعملوا معانا واجب.

في عودتنا رأت أيقونات مسيحية على إحدى جدران المعبد فأشارت إليها وقالت إنها تعلم هذه الرسوم وأن أحد الحكام أقام كنسية هنا وطمس الرسوم المصرية . ثم استدركت و أشارت إلى مسجد أبي الحجاج الذي بني على المعبد وقالت كذلك فعل المسلمون و بنوا هذا المسجد . كنا قد وصلنا إلى الفوج الذي تركته بسحر الرسوم التي على الجدار وكان الفوج يقف عند تماثيل الآلهة ، وتولى المرشد هنا الحكاية وخرج من موضوع إلى موضوع وهو يتحرك إلى مقدمة المعبد حيث تمثالي رمسيس وكنت أظن أحدهما رمسيس أما الآخر فلابد أن يكون (رمسيسة) إذ لم أفهم لماذا يوضع له تمثالين متجاورين وواحد كفاية قوي ، دا الريس متقال ملوش تمثالين جنب بعض في حتة . يجي ايه رمسيس جنب سيادته .. و طبيعي كان عندهم مجلس قومي للمرأة بدليل وجود تمثال سيدة جنب كل تمثال راجل فرعوني قديم ، في المعابد و في المتاحف ، حتى في المطبوعات الانتخابية ، باعتبار جوار كل ملك عظيم ولية عظيمة (تولول على اللي يقرب منه) . و أمامه المسلة الباقية . وعرفت ساعتها حكاية المسلة ومبادلتها بساعة جامع محمد علي . وقلت ما اكرم الفرنساويين وحياة ربنا . مرضوش ياخدوا المسلة ببلاش . بعتوا ساعة مكانها . صحيح ما اشتغلتش لكن دا مش ذنبهم . ذنب اللي ركبها.

....

كانت هذه أخر زياراتهم يتجهون بعدها إلى المطار ومنه مباشرة إلى باريس و كان همّ المرشد في هذه اللحظات أن يجمع البقشيش حتى إذا وصلوا للمطار لن يلتفت إليه أحد . وعلى طريقة حمد لله على السلامة يا باشا . و نورتونا والله يا جماعة و يارب تتكرر الزيارة ومصر من غير فرنسا متسواش . اشتغل صاحبنا في كل هذه العبارات مجتمعة حتى خرج له رجل جمع سنين عمره وخمسة معه على ظهره وتدلت شوية سنوات أخرى من عينيه وقال له : أنا أجمع تكلفة هذه الرحلة منذ ثلاث سنوات . وأنت واكل شارب نايم في فندق خمس نجوم وبتاخد فلوس كمان .. عاوز ايه تاني .

طلع باريسي من عزبة البرج . وأرجح أقوال الخبراء أن جده كان عسكري فرنساوي مع نابلون . وأصابته لعنة الفراعنة !!

بس .

إبريل **2007**

ويبقى قلبي حيا

كنت يومها حديث التخرج ، وكعادة الأساتذة الكبار في استغلال أمثالنا جلست في مكتب الدكتور رمزي أنسخ بعض الأوراق لمؤتمر زراعة القلب الذي يرتب لحضوره . وفي المكتب زكي بك أحد المرضى الدائمي الزيارة لمستشفانا .. رجل أحرق من عمره خمسين ربيعا ، تبدو النعمة من وفرتها كأنها تنسكب منه ، ممتلئ الوجه بين أصبعيه سيجارا لو اشتراه أحد زملائنا لظل عشر سنوات يدفع ثمنه ، كنت أسمعه يقول للدكتور رمزي إن نصحه بترك الخمور والتدخين وسهراته التي يحرص عليها : أنا ادفع لك ما يكفي لأن أحيا كما أشاء .. وكأنه يشتري منه الحياة .

في الفترة الأخيرة أعلن قلبه اليأس من الحياة وقرر تركه منفردا ، كان يعاني من قائمة طويلة من الأمراض مما جعل قرار الدكتور رمزي بضرورة نقل قلب لهذا الشخص حتمية ، من وجهة النظر

الطبية ، و لاعتبارات كثيرة أخرى أهمها ما ستفعله عملية كهذه باسم المستشفى الذي سيرتفع لاشك ، وبما سيدخل خزانتها ويعود علينا نحن الغلابة أطباء أول السلم كما يقولون . ثم رفع المشقة عن هذا الرجل الذي يصر على الاستمرار في الحياة كما يريد.

سمعته يخاطب سكرتيره في الهاتف ويقول له : أريد رجلا يعطيني قلبه وأدفع له ما يريد.

صرخ فيه الدكتور رمزي : هوّ قلب حنفية !؟ في قلب بيتنقل من راجل حي ... المطلوب رجل حديث الوفاة ..ثم صمت لحظة و قال .. ولحسن الحظ توفي من دقائق شاب كان قد وصل بالأمس في إصابة بالغة .. لكني لا أعرف كيف نطلب من والده طلبا كهذا.

قال : أنا على استعداد لدفع أي قيمة يريدها.

كيف يظن أن بإمكان رجل أن يهبه قلب ولده لأنه يستطيع أن يدفع له ، وهل توهب القلوب إلا في الحب .. هناك توهب اسما وتوهب دما .. توهب ويكون في الهبة السعادة .

كنت أعلم أن الدكتور رمزي احرص على هذه الجراحة من الرجل ، وأن باستطاعته الحصول على موافقة والد المصاب .. كان ذلك الرجل الذي يكفي أن يرى في خياله أمرا ليصبح تحقيقه حتما ، موقن تماما أن باستطاعته الحصول على ما يريد .. لم اسمعه مرة يقول (لا أستطيع) دوما يقول سأفعل ... حتى لو سئل عن أمر لا يعرفه فجوابه لا يكون (لا أعرف) وإنما يكون (سأبحث في الأمر وأخبرك بما تريد) ... وهو مع ذلك لا يسلك في الأمور مسلكا معوجا ولا يحبه .

راقبته أثناء العملية فقد سمح لي بحضورها لأنه كما يقول يرى فيّ صورته الصغيرة ، كان مبدعا بحق ..كنت كعادتي وأنا أقف معه أسأل نفسي .. كيف لهذه اليد التي شاخ جلدها مثل هذه المهارة .. يخطئ من يظن أن في أيد الجراحين قسوة .. مثل هذه الأيد التي لا تتعامل إلا مع أنسجة بلغ من رقتها أن حَوَت الحياة في أحشائها .. لا ينبغي إلا أن تكون أرق يد .. كانت يده كذلك .. مرنة كأنها يد غانية ألفت الرقص منذ شبت .. رقيقة كأنها يد أمّ على خد أول أبنائها ساعة تراه .. دقيقة كأنها يد عازف لم يألف أبدا أن تكون منه نغمة نشازا ...

ثم ......

هذا القلب الهامد الذي كان منذ لحظات قلب شاب يبدأ الحياة قد استقر في صدر كهل يكتب أسطره الأخيرة فيها .. قد بدأ يرفرف كأنه طائر على ريشه بلل بعد ان تم تحفيزه للعمل بعد فترة سكون هي الفرق بين هاتين الحياتين.

في المساء كنت أقلب أوراقا لهذا الفتى نسي أهله من فجيعتهم تسلمها فوجدت فيها مفكرة صغيرة لم أحاول أن أقرأ منها شيئا لكن عيني لمحت هذه العبارة :

(مها .. إن مت . سيبقى قلبي حياً بحبك) .

وقد مات .. وبقى قلبه حيا ..

مارس 2006

بكاء

يبكي العشاق حبا ،
وشوقا ،
وفرحا ..
ويبكون على أيام أضاعوها باكين !

بغير حذاء

أشياء كثيرة ينبغي لك أن تتمها قبل أن تخطو هذه الخطوة . أولها أن ترتدي لها الحذاء المناسب . ضحكت نفسه من هذا الخاطر وهو ينظر لحذائه . لم يفكر يوما أن يختار الحذاء المناسب لشيء . في المدرسة كان يصر ألا يرتدي حذاء التربية الرياضية ويذهب دوما بحذائه الذي كان يتمزق سريعا . حتى الكرة التي كان يلعبها لم يلتزم يوما باختيارها مناسبة . عندما كان يتعذر الحصول على كرة كان يلعب مع زملائه بالحجارة ، بعلبة مشروبات غازية أو حتى بحقيبة كتبه الصغيرة . لا يعرف حتى الآن لماذا لم يجرح هذا الحجر أو تلك العلبة الحادة أحد زملائه أو يجرحه هو شخصيا كل تلك الفترة التي مارسوا فيها اللعب بهذه الطريقة . قد تكون الحماية الإلهية . لماذا إذا تغيب الحماية الإلهية عنه الآن . لماذا يجرحه كل

طريق يمشي فيه وهو أحوج للحفظ في هذه الطريق منه وهو طفل يلعب .

ابتسم وجهه . ليست معاصيه بالطبع هي التي تحرمه هذا الحفظ ؛ يوقن بهذا . إنه لا يعمل شيئا على الإطلاق ما يعني أنه لا يقع في المعصية . الذين يعملون وحدهم هم الذين يخطئون ، أما هو فكيف يخطئ . لا يدري لماذا تذكر حريق المسجد الأقصى وحادثا لمسجد في الهند منذ سنوات ووجد ذات السؤال : لماذا غاب الحفظ الإلهي هنا ولم يغب عن المسجد الحرام أيام أبرهة ؟! بل لماذا غاب الحفظ الإلهي للحجر الأسود ذاته أيام القرامطة وهو هو ذات البيت ؟

أحرق عود الكبريت الذي نسيه وهو يفكر في هذا الخاطر يده وقد كان أشعل به النار لإبريق الشاي . حتى هذا العود طالما انطفأ قبل أن يشعل به النار في مغامراته القديمة لماذا بقي مشتعلا الآن حتى أحرق إصبعه ؟!

إن الله لا يحفظ إلا الصغار ؛ وحدهم هم الذي ينعمون بهذه النعمة . هم الذين يقفون على حافة الأسوار العالية لا يهتزون . والذين يقفزون من خزانة الملابس للأرض لا يمسهم سوء . ثم ينامون بعد ذلك وهو لا يشعرون أن شيئا خارقا قد حدث . يتذكر كل هذا

اليوم ويعيد ذات العبارة : إن الله لا يحفظ إلا الأطفال .. مع أنهم يكذبون . هو ذاته كان يكذب كثيرا . كان يخفي أغراض زملائه . كان يسب وربما كان يخادع أيضا . ليست إذا الأخطاء هي التي تمنع هذا الحفظ . إنه شيء آخر حتما .

أزّ الإبريق في تلك اللحظة فحمله وملأ كأسه ، سيذوب يوما في دورانه هذا . الحصى وحده الذي لا يذوب ، سيبقى في الكأس لكن السكر حتما سيذوب .. تماما .

والملح أيضا !

على مكتبه كانت كأسه قد انتصفت ومصباحه إلى يساره منحنيا بخضوع و بينهما أوراق كثيرة وأمامها كتب تبدو من بعثرتها كأيام الزمان . وهو يخرج مفكرة صغيرة و يهمس لنفسه : ماذا علي أن أتم اليوم ؟

يونيو 2007

قفزة

ليس هناك خيار آخر إما أن أقفز طائعا مختارًا أو ألقى ، لا مكان للتردد هنا ، ولا للعصيان وإلا فما أسهل العقوبات التي يوزعها قائد وحدتنا .

أنا الذي لم أقفز درجتين من سلم بيتنا أجد نفسي معلقا بين السماء والأرض على ظهري حقيبة وضعوا فيها الدنيا مصغرة وفي قدمي حذاء لو انتعله جمل لما تحرك محتجا على ثقله وفوق رأسي حجر أجوف سموه خوذة وعلى وجهي نظارة تخفيه كله . ووسط هذه الأشياء كلها أقبع أنا لا أعرف توصيفا دقيقا لي إلا أني أشعر كما يشعر الطفل إذا ألقوا عليه عباءة جده فتاه فيها ، فلا يعرف مكانا

يخرج منه ، تارة يصل لمكان اليد فتنحشر رقبته ثم يعود ويتوه وهكذا ..

اقفز .

كان هذا الأمر لي . لأنه لم يبق أمامي أحد . حاولت أن أتذكر كل ما علموه لنا متى أفتح المظلة ، كيف أحدد مكان الهبوط ، كيف أصل إلى الأرض . ثم مالي أنا وللوصول إلى الأرض ، اشعر أنني سأموت قبلها . لم أشعر بخوف عند هذا الخاطر ، هذا لأنه لم يكن أمامي احتمال ثان ، وعادة عندما تغلق الأبواب إلا بابا واحدا تكرهه فإن عقلك سيرضى بهذا الباب وسيحبه ويسرع إليه . يكفي أن تعجز أو تقتنع بالعجز وستقبل كل شيء .

(أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله) تمتمت بها ثم قفزت .

هناك لعبة في مدن الملاهي لا أعرف اسمها تصعد إلى السماء بسرعة وتهبط بسرعة .. عندما تهبط تشعر أن قلبك سيخرج من عينيك وأن الدنيا قد احمرت أمامك ، لم تحمر عن حب إنما لأن دمك كله

قد تجمع في رأسك (لذلك قلت إنني سأموت قبل أن أصل – ما الذي يمنع شريانا من رأسي أن ينفجر وأنا في الهواء)

تذكرتها فجأة .. كيف ستتقبل انقطاع رسائلي التي عودتها عليها منذ أن دخلت الجيش ، كنت أكتب لها كل أسبوع ، في فترة التدريب الأولي كان الوضع مريحا ، كنا نسرق الأكل ونخطط لمقالب في زملائنا ونتسارع لنوقع ببعضنا العقاب . كتبت لها عن أول ما شعرت به عندما دخلت هنا ، أحسست أن حريتي سلبت ، أن ابوابا حالت بيني وبين الدنيا كلها وأنا لم أغلق عليّ باب غرفتي يوما .. كنت أحفظ كل شيء يمر علي لأنقله لها ، أعلم أن شيئا من ذلك لم يكن ليعنيها ولكني كنت أريد أحدا من الدنيا التي في الخارج أن يحيى معي حياتي هذه . كنت أحسها بجواري وأنا أكتب ، أحيانا أحس أن عين أمها التي لا تحبني قد أتت معها فأختم الرسالة بالسلام عليها (أمها) وأنام .

سمعت صفيرا ملحا فأسرعت وفتحت المظلة ، وتوقفت . نعم توقفت .. بين السماء والأرض أحسست كأن يدا قوية جذبتني لأصعد ، كادت أضلعي تصرخ لكنها أيقنت أن أحدا لن يسمعها ولا حتى أنا فصمتت مرغمة ، انخفاض السرعة المفاجئ هو الذي أشعرني أني توقفت ، شعرت أني كأرواح الموتى ، يقولون إنها تطير

حيث شاءت تزور من تحب ، لو كنت روحا الآن لزرت (ولاء) لأرى ماذا تصنع ، كم أتمنى أن أراها الآن . ترى أتبكي علي كثيرا إذا علمت بهذا الخبر . إنها قوية تستطيع أن تخفي مشاعرها دائما . كنت أحتار في معنى نظراتها ، وكنت أذهب بهم كل مذهب ومع ذلك لا أجد أنها تحمل معنى . تملؤها اللهفة فألقاها فلا تزيد عن ابتسامة كأني كنت معها بالأمس . ويكاد يعصف بها الغضب فتبتسم ايضا لكن بين هاتين الابتسامتين ما بين السماء والأرض ، أصبحت أزعم أني أعلم رضاها وغضبها وحزنها وفرحها .

بدت لي الارض جميلة وهي تقترب وبدت تتشكل ملامح الأشياء فيها .. رؤية الأرض من مكان مرتفع ظلت حلما يراودني .. ترى كل ما تعده عظيما وأنت على الأرض صغيرا تافها وأنت في السماء ، أما الناس فلن تراهم أبدا .. يكفي أن ترى آثارهم . إن قدمي الآن فوق أعلى رأس من رؤوس الناس على الأرض . لأجل ذلك يحب الحكام أن يبنوا بيوتهم فوق الجبال كأنما ضاقت الأرض بهم .

اقتربت الأرض أكثر وأكثر ....

و ..

هبوط هادئ كمحترف مظلات .. كان زملائي قد وصلوا جميعا .. أديت التحية وسألت : (هما هيطلعونا السما تاني امتى ؟)

مايو 2005

زمن

سبع سنوات .. بنت بيتا .
سبع سنوات .. أسكنت البيت أثاثا و جعلت له إخوة عند كل أفق .
سبع سنوات .. قررت أن يعود .

*****

واحد وعشرون عاما .
تزوج ولده !
توفيت زوجته !
عادت معه حقيبة !
و حطام سنين .

يوليو 2007

حرية القفص

مودّة ، جارتي الصغيرة . حلوة المحيا ، باسمة الثغر جميلة الحديث عذبة الدعابة وثابة النفس بين الخامسة و السادسة من عمرها . تحمل عصفورها كل يوم و تصحبه إلى حديقة المنزل الصغيرة .. تعلق القفص على غصن منخفض وتجلس تحادثه وتهمس إليه ... لا تختلف لها هذه العادة ... حتى أنها لتحمل ألعابها وتبقى هكذا إلى أن يعود أبواها من أعمالهما ....

ألق عليها وعلى صديقها الجميل التحية كل يوم في غدوّي ورواحي فتبتسم برقة طفولية حتى كأن وجهها الروضة الغناء .... ولو رأيتم ابتسامها لعلمتم معنى وصف الشعراء أن الشمس تبتسم .

لم أكن مشغولا هذا الصباح فحملت أوراقي ونزلت إليها ، آنس بها وبطيرها .

و هناك عند القفص طائر جميل يطير هنا وهناك ثم يحط قرب القفص ... في لونه جمال النهار في أوله

ولم يزل هذا الطائر على هذه الحالة حتى سألتني مودّة : أتراهما يتحادثان (تقصد عصفورها والضيف)

قلت : لعلهما يفعلان ..

قالت : وماذا يقولان .

قلت : ما رأيك لو نتخيل سويا ما يقولان .... أنا ذاك العصفور و أنت هذا الطائر ...

ثم قلت على لسان عصفورها : أيها الطائر الذي زارني اليوم مزهوا فرحا كأنما جمعت لك الدنيا فهي بين يديك طيّعة ... علام كل فرحك هذا ...

فأجابت : ولم لا ... أليست لي السماء اطير فيها حيث شئت وأحط على أي غصن أريد ... أليست لي الأمواه أرد أيها أحب ... أليست بين يدي هذه الرياض الخضر وهذا الحب الذي نثره الله في أرضه ... أقع على ايها أشتهي ...

ألست ألهو في الروض وفي السهل وفي الجبل ....

فأجبت : لكنك يا عزيزي لا تأمن على نفسك من جارح يفترسك ، أو صياد يصيبك ، و أبناؤك كذلك لا يأمنون . إذ بيتهم قش يهوي به الريح أينما هبت . أما أنا فالآمن هنا من كل غائلة ، السعيد بالماء العذب والحب الشهي . ألقاه متى شئت ..... يلاعبني أهل البيت . أونس وحيدهم ، وأسعد حزينهم و أسمع شاكيهم ...

قالت : أنا حر في كون الله الواسع
قلت : وأنا حر في مأمني مما أخاف .

نظرت إلي وكأنها تسأل : يعني إيه حر !

قلت لها : ما رأيك لو نترك القفص مفتوحا الليلة ... وغدا أخبرك .

رنت صامتة . ثم قالت : أفـــــــــعل ..
في الصباح كان عصفورها في الشرفة ميتا . قد افترسه طير عابر .

نظرت دامعة .

فقلت لها : من اعتاد عيش الأقفاص ..... لا يحسن الحياة حرا في غيرهـــا

يوليو 2005

لماذا هنـــــا ؟

لم يكن الجو هادئا كما بدا في الأيام السابقة ، إذ لم تخل من غارة أو اثنتين وحملات تفتيش تسفر عادة عن قتلى ومصابين ....

جلست في الشرفة أتأمل المدينة المتدثرة بالأسى النائمة في أحضان الخوف والألم . ولعلي أخطئ إن وصفتها بالنائمة فأين النوم من الخائف المتألم .

هذي النوافذ قد غلقت على دموع لا تجف .. ودماء سيالة ، قد تغرق وقد تروي ، لكن ريها يثمر نبتة لا يعلم إلا الله طعم ثمارها.

أذكر لما جئت هذه المدينة أول مرة ، كنت قد أنهيت دراستي الجامعية وأصر أبي أن نرى مدينته التي نشأ فيها . أقول مدينته لأني لم أرها إلا كذلك . لم أكن أعرف لماذا يحبون هذه الأرض كل هذا الحب . لماذا كان مدرسونا حريصين أن يذكروها في الحين والحين

.... هي الوطن وهي الأمل وهي الذات وهي الهوية . سمعنا في وصفها الكثير ، ولا أدري أين يكمن فرقها عما سواها من البلاد .

أليست كل البلاد متشابهة . لماذا إذا نموت من أجل الوطن ؟ لماذا ؟!

أيبلغ حبنا للتراب أن نسرع إليه لنجاوره الجوار الأبدي الصامت ...

كنت أنظر إلى المجندات الإسرائيليات وفي نفسي سؤال واحد : ما الذي يمنعني أن أحب هذه الحسناء أو تلك ... كنت أتبعهن بعنيني إذا غدون وأراقبهن إذا رحن علي أعلم من أين يأتين أو أين يذهبن .

وأسأل ذات السؤال : لماذا هنا ...؟ أضقن بالحياة حتى أتين يرقن هذا الجمال .... ولا عمر للجمال هنا .... هنا كل شيء يموت .... حتى الجماد ....

و أنظر للأطفال يحملون حقائبهم . تمضي بهم الطرقات صامتون إلى مدارسهم .... وأحاول ان أتخيل أي شيء يدور في أذهانهم

الصغيرة .... أترى هذا الطفل بم بفكر ... لعله ينظر إلى حجب الأيام ويرى أباه وقد حمل له ((قاربا)) صغيرا يبحر به في أحلامه .. أو (مكعبات) يجعلها أحجارا لمستقبله ... يبني منها البيت والقصر والمدرسة والمسجد .... أولعله كتاب . أو هو ناي أو عود .

وهذه بم تحلم ؟! برداء أزرق لامع يجعها في الحسن ملكة . بسوار يحيط هذه اليد كما تحيط النجوم القمر . بدمية تكون لها أما ... أم .. أم ....

كل هذا يصح لأطفال العالم إلا هنا.

كل هذا يجوز في كل مكان إلا هنا .

من يضمن لهذا الطفل أن يعود أو يعود فيجد أباه أو أن تبقى له اليد التي يكتب بها أو يعزف .

وأنى لهذه المكلومة في أب أو أم أو أخ أن يبقى في قلبها مكان لثوب أو سوار .

هنا لا أسأل أحدا لم يبكي ... إذ الجواب مكتوب على كل جدار . يحكيه الهواء بزفراته . والماء بغصاته ...

ويحكيه هذا الأب الذي بكى على قبر ولده فقال :

كان ودي يبقى كبير
ويكون بطل تحرير
ويفضل اسمو في السما
دا حلم عمره سنين
لكن قدرنا كلنا ...مكتوب ع لجبين

يوليو 2005

فهرس المحتويات

الكاتب

محمد أحمد العدوي

1982

طبيب بشري

المنصورة

www.ataleofdays.blogspot.com

http://www.new.facebook.com/inbox/#/group.php?gid=22587062608

